قضايا الأشخاص ذوي الإعاقة

في الرواية المصرية

أ.د/ محمد عبد الحميد خليفة

أستاذ الأدب الحديث والنقد
رئيس القسم اللغة العربية
جامعة دمنهور

الملخص:

يتناول هذا البحث واحدة من الروايات الحديثة والقليلة التي اختارت أن تعالج قضية من أهم القضايا وهي قضية الإعاقة في الوقت الذي ندر فيه وجود أدباء اتخذوا من هذه القضية موضوعا فنياً وجمالياً.

والرواية التي بين أيدينا هي رواية (قاب قوسين من الياسمين) لكاتبها محمد ناجي عبد الله الذي لم يكتف كغيره بمس هذه القضية مساً خفيفاً، بل تعمق في عالم هذه الفئة التي لم يلتفت إليها غيره من الأدباء، بل أكثر من هذا أنه وضع نفسه ووضعنا معه كقراء في إشكالية نشوء قصة حب طرفاها من المعوقين الذين يكاد يكون من المستحيل التواصل بينهما (كفيف البصر وصماء). ومن خلال الغوص داخل هذا العالم استطاع بمقدرة نادرة أن يناقش على أطراف قصة الحب هذة قضايا شائكة تخص هذه الفئة كقضايا:

التواصل بين فئات المعوقين ، وقضية التحرش ببعضهم، أو التنمر ببعضهم، ليخرج من كل هذا إلى أهم القضايا المتصلة بهم وأكثرها شمولية، ألا وهي قضية الوعي المجتمعي لهذه الفئات الخاصة. كل هذا في قالب فني تعاون الخيال فيه مع الواقع في التعبير عن الأشخاص ذوي الإعاقة.

الكلمات المفتاحية:

قضية الإعاقة، قاب قوسين، كفيف البصر، صماء، التحرش، التنمر، الوعي المجتمعي.

Issues of persons with disabilities in the Egyptian novel

Dr. Mohamed Abdel Hamid Khalifa
Professor and Head of the Department of Arabic Language
Damanhour University

Abstract:

This research deals with one of the few modern novels that chose to address one of the most important issues، which is the issue of disability، at a time when there are rare writers who have taken this issue as an artistic and aesthetic subject.

And the novel that we have before us is a novel (around the corner from the jasmine) by its writer Muhammad Naji Abdullah، who، like others، was not satisfied with touching this issue lightly، but rather delved into the world of this category that other writers did not pay attention to، but more than this he put himself and put us with him as readers in a problematic The emergence of a love story in which the two parties are disabled، who are almost impossible to communicate between them (blind and deaf) and by diving into this world، he was able with a rare ability to discuss on the outskirts of this love story thorny issues related to this category as issues:

Communication between groups of persons with disabilities، and the issue of harassment or bullying of others، to get out of all this to the most important and most common issues related to them، which is the issue of societal awareness of these special groups. All this in an artistic form in which imagination cooperated with reality in expressing people with disabilities

keywords:

The issue of disability، around the corner، blind، deaf، harassment، bullying ،Community awareness.

تمهيد:

قد تعالت في العقود الأخيرة الاهتمامات بالأشخاص ذوي الإعاقة على مستويات الحكومات والمؤسسات المدنية والاجتماعية وكأنهم جميعا قد اكتشفوا فجأة أن بينهم شريحة ليست بالقليلة ممن أراد الله لهم أن يعيشوا في ظلام حالك ، أو في صمت مطبق، أو رهيني كراسيهم المدولبة. ولكم عانت تلكم الفئات على مدى دهور من تهميش وإهمال ونظرة دونية أسهمت سلبا في عزلهم وشعورهم بالاغتراب وسط ذويهم، الذين انعدمت لدى كثير منهم ثقافة الإحساس بهم.

ورغم أن الاهتمام المتزايد في الآونة الأخيرة لم يعدو سوى احتفالات مرهونة بمناسبات موسمية، فإن دمج المعوقين في المجتمع، ونشر الوعي بهم لايزال في مراحله الأولى، إذ لا يزال لدينا الكثير والكثير خاصة في مجتمعنا العربي حتى يتحقق ذلك الدمج وذلكم الوعي، الذي يحقق سلاما مجتمعيا ومساواة طالما لهجت بها الألسنة في الاجتماعات والمؤتمرات التي تُنسى توصياتها لمجرد فضها.

وكنا نبحث عن الأدب والفن بعامة بوصفه أحد أذرع القوى الناعمة ودوره في مناقشة قضايا المعوق بوصفها قضية واقعية لا تقل عن القضايا الرومانسية والتاريخية والبوليسية التي تحفل بها القصة الحديثة والمعاصرة حتى ظهرت رواية (قاب قوسين من الياسمين)، لكاتبها محمد ناجي عبد الله ، التي أظن أنها غير مسبوقة في تعرضها المباشر لأزمة الإعاقة وما يتصل بها من قضايا

تلكم الفئات الخاصة، حيث لم يأت المعوق في الرواية نافلة أو يتخذ دورا هامشيا وإنما دلف ناجي عبد الله بقوة مقتحما منطقة صعبة في حياة المعوقين، معتمدا على خياله مرة وخبراته الحياتية مرة أخرى في الغوص لا إلى حياة المعوقين فحسب، وإنما إلى طرق تفكيرهم ورؤاهم الخاصة لأنفسهم وللآخر، وذلك من خلال عرضه أو قل دحرجته فكرة تبدو جديدة أو عجيبة في طرحها لأول وهلة لكنها لاتبعد عن المنطق إذا تأملناها بروية إنها فكرة قصة حب تنشأ بين اثنين ممن ينتمون إلى هذا العالم الخاص، غير أن الصعوبة والعجب يزدادان أو يعقدهما الكاتب حينما يختار من هذا العالم اثنين ينتمي كل واحد منهما إلى إعاقة تختلف عن الأخرى، بل يستحيل الجمع بينهما لاستحالة التواصل بينهما. فبلال بطل القصة مكفوف البصر، ونسمة صماء بكماء ، فكيف نتصور التواصل بين من يتواصل مع الآخر بأذنه ، وأخرى تتواصل مع الآخر بلغة إشارة ترى بالعين ولا تسمع بالأذن، غير أن كليهما يعمل على استنفار حواسه الأخرى التي تحقق المستحيل، يتعرف بلال إلى محبوبته أول مرة عن طريق رائحتها (رائحة الياسمين) التي تلفته إليها، وتكسر تلك الفتاة الرقيقة حاجز المستحيل حينما تبتكر وسيلة تنطق عنها بصوت آلي ليسمعه بلال. هذه هي الفكرة بإيجاز، لكنهما يعيشان في مجتمع ينظر إليهما وكأنهما أعجوبتان، تتباين ردود أفعال هذا المجتمع حيال إرادة معوقين للحب والحياة، وفي خلال الرواية، يستمر الكاتب في مناقشة عديد من القضايا التي تخص حياة المعوق ونظرة المجتمع له، وعجزه

المضحك عن استيعاب مايجري حوله، ولسوف نحاول تتبع بعض هذه القضايا لنرى كيف عالجتها القصة بخيال روائي مبدع.

أولا: عالم يحكمه الصمت لدى المعوقين سمعيا:

يجيد الراوي أيما إجادة في رسم شخصية "نسمة" تلك الفتاة الفنانة الرشيقة كالعصفور ، أو قل كالنسمة الرقيقة التي تعيش عالمها كصماء بين لوحاتها وألوانها وفرشاتها ، تلفت إليها الأنظار بجمالها الأخاذ وعينيها الخضراوين ورقتها العذبة ، تناجي في صمتها ذاتها والعالم من حولها عن علّتها ؛ فتقول في ص٩:

"بقيود الزمان والمكان قيدت.. بمجتمع معاق تسلسلت.. وبأفة ذل ألصقت بي، عشت.. كيف لا ولست بحرة نفسي.. أتحدث فلا يبالون، أصرخ فتتعالى ضحكاتهم... الصمت عادة هو الملاذ الأخير لنا حين نشعر بالضجر يغلفنا من كل اتجاه، هو الملاذ الحقيقي الوحيد لآلامنا وصدماتنا، الملاذ الأكثر أمناً ككثبان من رمال الصحراء الدافئة ندفن فيها رؤسنا باحثين عن بضع دقائق أو ربما ساعات من الهدوء لا نسمع فيها سوى طنين يدوي في عقولنا.. لا نسمع سوى ذلك الصفير يتردد ثابتاً في آذاننا، آملين أن يعود كل شيئ كما كان فور انتهائه، ولكن لا شيئ يتغير، فلا الصفير ينتهي، ولا العالم يصير مكاناً أفضل. البعض يرى أن لجوءنا للصمت لهو ضرب من الجبن والهروب من شيئ ما، ضرب من الضعف وقلة الحيلة كما يرى البعض الآخر.. لكن للصمت ألف معنى وآلاف الحكايات).

هكذا يبدو عالما من الصمت المطبق الذي تعيشه نسمة وكل من يشاركها تلك الإعاقة التي تعزل صاحبها عن عالم قد يبدو أشد ازدحاما وتلاحما وصراخا وضجيجا، لكنهم هم فقط من يدركون أن للصمت ألف وجه وحكاية.

لكن السؤال الذي تطرحه الرواية هو: أي الفريقين أكثر عجزا: المعوق ذاته الذي ابتدع لغة للتواصل مع غيره، أم ذلك المجتمع الذي نظر عن كثب إلى المعوق سمعيا _على سبيل المثال_ الذي لم يستجب لداعي التواصل معه وفضل أن ينظر إليه وكأنه كائن من عالم آخر. وهنا يقدم الراوي رؤية محايدة فيها الإجابة عن هذا السؤال، فأحد مسئولي جمعيات الصم والبكم يجيب بلال حينما تحاور معه الأخير فيقول ذلك المسئول الذي يشف قوله عن معتقد الراوي ذاته، فيقول ص١٦٦:

"يا عزيزي إن لغتهم تتطور إلى الأسوأ و الأصعب، وتزداد تعقيداً بمرور الأيام، ليس لأنهم مرضى معزولون كما وصفتهم، وإنما لأننا نحن المرضى، نحن من لم نتقبلهم في البداية، ونجاهد أنفسنا على التواصل معهم بلغتهم البسيطة الأولى، نحن من عزلناهم ياسيد "بلال"، فصنعنا منهم مرضى وكارهين وناقمين على الحياة، نحن من دفعناهم إلى ابتكار لغة جديدة معقدة كالطلاسم كما قلت أنت.. وإذا أردت أن تقترب منهم، فعليك فك ضفائر تلك العقدة.. عليك أن تجاهد نفسك لفك تلك الطلاسم!".

هكذا كان المجتمع ظالما في إقصائه المعوق والحكم عليه بالمرض، لقد تكشف إذا أن مجتمعاتنا هي التي تعيش إعاقة كبرى فوقفت محلها منتظرة أن يأتي الآخر إليها ليتواصل معها، ولم نكلف نحن أنفسنا بسبق المبادرة إليهم .

ثانيا: التواصل بين المجتمع والمعوق، وأزمة الوعي:

ومن أهم القضايا التي كان لابد للكاتب أن يتعرض لها هي قضية نظرة المجتمع إلى المعوق، وهي نظرة تحمل موروثا من الجهل بالآخر وعدم الاعتراف بأهليته ، فنسمة صاحبة المساحة الأبرز في الرواية حينما تذهب لإحدى المكتبات لتشتري بعض حاجياتها من أقلام وفرشاة وألوان، تعاود أزمة التواصل معها تحققها من جديد كمثل عجز سائق التاكسي عن التواصل معها، حينما تستقر على شراء أغراضها ، يأتي دور القائمين على التعامل مع زبائن المكتبة . يقول ص٤٣:

"تنبهت فجأءة بيد تربت على كتفها ببطء فالتفتت مذعورة لتجد فتاة الإستقبال وبجانبها رجل أربعيني يرتدي حلة سوداء ورابطة عنق مقلمة يتدلى من رقبته بطاقة كتب عليها "مدير" باللغة الإنجليزية، قبل أن تنطق بكلمة ابتسم الرجل ابتسامة لم ترحها وبدا بالايحاء بوجهه والإعراب عن رغبته في خدمتها، أومأت "نسمة" إليه بأنها لا تفهم، شعرت أنه ربما يفهم لغة الإشارة فاخبرته، أشارت بلغتها أنها تود شراء أقلام فحم وفرش تلوين وألوان زيتية وزيوت خلط الألوان ومنظفات.ذهل الرجل من اللغة وحاول الابتسام أكثر فاتحاً راحتى يديه مرحباً بها، قهقهت "نسمة" بعد أن بدا الرجل في نظرها كمهرج غبي وضع نفسه فى موقف محرج.. لكن ما أقدم على فعله بعدها أثار غضبها بحق، حاول أن يبالغ في ردة فعله وتعابير وجهه فيتحدث ببطء شديد ويهول من استعمال لغة

جسده، وإثر ذلك صدرت ضحكة سريعة من فتاة الاستقبال بجانبه لمحتها " نسمة"، واعتبرتها إهانة لها.. تلفتت حولها فوجدت مذكرة ورق صغيرة بجانب الأقلام لتجربة الأقلام عليها، سحبت ورقة وقلماً وكتبت، انتظر الجميع بشغف حتى جال بخاطر الرجل "كيف لم أرح بالي منذ البداية وأكتب لها بدلاً من جعل نفسي مهرجاً لعيناً؟" أنهت الكتابة ولملمت حاجياتها التي أتت من أجلها وانطلقت إلى قسم المحاسبة تاركة الورقة بجيب قميص المدير المذهول أمامها، فتح الورقة فصدمه وقع الكلام: " ياسيدى.. أنا صماء.. لكني لست بغبية".

إن المفارقة تتجلى هنا حول ادعاء الإدارة والإعلان عنها رغم عجز مدعيها وانطباعاته الزائفة عن الصماء لأنها لاتفهم ولا تعي وسط تفاهة الموظفين غير المؤهلين في الحفاظ على مشاعر الآخر، ذات الأمر يتكرر في موقف آخر كاشفا عن عجز المجتمع في التواصل مع تلك الفئة لانعدام وعيه بهم وبحياتهم، فرغم ظهور نسمة الفاعل على السوشيال ميديا،فإن التفاعل الإيجابي مع تقنيات العصر لم تلفت نظر أحد ممن أرادوا التحدث معها عبر الماسينجر فاندهش لكونها صماء بكماء وتكتب على صفحات الانترنت مؤكدا ماتكرس في وعي الكثيرين من أن الإعاقة تعني الأمية والعجز التام عن التواصل، الأمر الذي أغضب الفتاة وأثار انفعالاتها وغيظها وهجومها عليه، يقول ص٧٨:٨٦:

"كانت كلمات الشاب غريبة.. لكن ما أثار فضول نسمة للرد عليه هو تلك الصورة الساذجة التى يضعها على صفحته الخاصة.. فنزعت الملاءة عنها

واعتدلت في جلستها وطرقعت أصابعها، كأنما تستعد لتوجيه ضربات قاضية لا نقرات على لوحة المفاتيح.."

- **أها.. فهمت قصدك.. عجباً سيدي، تراقبني منذ فترة، وتراقب كتاباتي، وتأتي متبجحاً بصورتك الشخصية العارية التي توحي بأنك سطحي تافه لا تملك من نفسك سوى هذا الجسد لتعريه وتثير اشمئزازنا وتحادثني الآن سائلاً إياي ما إذا كنت أقرأ أم لا؟**
- **لماذا اعتبرت الأمر على مستوى شخصي؟ أنا فقط أود الحديث وتبادل المعرفة.. الست أنت من كتبت ذلك بالمعلومات عنك؟!**
- **نعم.. أود تبادل المعرفة مع من يجهدون عقولهم ويحاولون استعمالها.. أيها الغبي أنا أعرفكم جيداً.. يامعشر"الذين يسمعون" تأتون متبجحين وتعاملوننا كأننا "أغبياء" ولا تريد مني أن أثور!)،**

هكذا تكشف مثل هذه النصوص عن أزمة حادة يعانيها الإنسان في أثناء معاملته مع المعوق في أوطاننا العربية، إنه_ أي المجتمع_ رغم أنه يعيش مع المعوق أو قل يعيش المعوق معه، غير أنه لايشعر به ولم يفكر في أن يبادر في التعرف على عالمه، فظلت الهوة تتسع بينهما، وقد تأخذ أشكالا أسوأ ناتجة عن انعدام الوعي وقلة الاكتراث ذلك حينما يتحول المعوق إلى مادة للسخرية أو التضاحك من بعض أولئك الفئات غير المسئولة، فلقد تعود بلال الذي ترك عيشته الثرية المرفهة في جاردن سيتي حيث اختار شقة متواضعة في بيت قديم

متواضع في شارع رمسيس الذي يعج بكل أصناف الزائرين والمقيمين سكنه في الشقة المواجهة لشقة نسمة، حيث تعود كثير من السكان أن يلقوا بقمامتهم أمام شقته ليتعثر فيها، استغلالا لعماه.

هكذا تنشب مشكلات وتنتج أشكالا وأشكالا من الإساءة إلى ذوي الاحتياجات الخاصة، بعدما بدأت سابقا بالإساءة في فهم عالمهم، وربما تتطور تلك الممارسات السلوكية إلى الأسوأ على نحو ما سيأتي في السطور الآتية.

ثالثا: التحرش والاستغلال الجنسي للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة.

لقد بدأت أجراس الخطر تقرعها كثير من المؤسسات ناهيكم عن الأفراد والمهتمين بالأشخاص ذوي الإعاقة تلقاء مايقع فيه بعضهم، من استغلال لإعاقتهم بالتحرش بهم أو استغلال أعضائهم أو جنسهم، ولقد كشف النقاب عن مآسي تحدث في الخفاء وبعيدة عن الرقابة في بعض الدور التي تجمع الأشخاص ذوي الإعاقة أطفالا وشبابا، ولم يسلم بعض أولئك الأطفال أو الشباب من عبث الآخرين بهم في شوارعنا وفي وضح النهار، ولا يقدم ذلك الكلب المسعور على التحرش بفريسته إلا بعدما ازداد وهمه وخياله المريض بدونية تلك الفئة وإمكانية استهلاكها، حيث إنها في زعمه لاتمثل جزءا من المجتمع بقدر ماتمثل عبئا مضافا عليه.

يقدم الراوي واحدا من هذه المشاهد المأساوية التي تكشف عن حيوانية الإنسان الذي يمد أنيابه موشكا افتراس القطط الأليفة بدلا من أن يقدم إليها يد المساعدة، فقد عزم (سراج) ذلك الشاب الفاسد (ابن العم فوزي) ببيت نسمة وبلال على أن ينال من براءة نسمة تلك الصماء الرقيقة التي أشعله جمالها ورقتها في ذهابها وإيابها أمامه، فعزم على الإيقاع بها فتابعها مرة حيث ضيق عليها الطريق واضطرها إلى أن تسير نحو إحدى البنايات المهجورة، ودفعها داخلها وهو يعلم عجزها عن أن تصرخ أو تستغيث بأحد، يقول ص١٢١،١٢٣:

"نظر حوله يتأمل المكان، وفور أن اطمأن إلى أن لا أحد سيناجيها.. ركض كالمجنون باتجاهها. فور أن اقترب فصار على بعد خطوة.. قرب رأسه منها، وهمس في أذنيها بشره حتى لامستها شفتاه الغليظتان..

"ولا ياسمااعه.. ما تجيب ولاعه"

كانت أنفاسه الحارة اللاهثة في أذنيها ورائحة التبغ المقيتة التي اختلطت بريح أسنانه العفنة كفيلة وحدها بأن تثير الرعب في نفس الفتاة.. التفتت في ذعر لتجد وجهاً مظلماً ولساناً متدلياً ككلبٍ مسعور، وابتسامة باهتة وعينين ضيقتهما اللذة ينظران إليها. جحظت عيناها وتعرقت، ضمت إليها قميصها وحقيبتها القماشية، بحثت حولها عن مخرج، عن شخص ينجدها، وأنفاسها باتت كمن ركض ألف عامٍ، علمت أنه ما من مفر يومها سوى الركض.. الركض والركض والركض، بيد انها عندما حاولت الالتفات إلى الطريق والعدو بأقصى ما أوتيت من قوة.. تأهب الذئب للإنقضاض على الغزال.. فركضت ولا يزال صراخها يدوي بأصوات لامعنى لها، أصوات كأصوات النعاج غير منتظمة، تصرخ بكل ما عندها من صوت وقوة، فلا يأتي من يتدخل لفض النزاع بين الذئب والحمل. تزايد الخوف، والقلق عانقها بغلظة، وتسارعت دقات القلب لا تدري إن كان قد اقترب أم لا، لا صوت ظاهر، لا صوتها وهي تصرخ، ولا صوته وهو يعدو خلفها..حتى أحست بيدين قاسيتين أحكما إمساك كتفيها الضئيلتين، طوحتاها يميناً حتى ارتطمت بالحائط.. وقبل أن تنظر لوجهه العكر من جديد،

بادأها بصفعة قوية على الوجه، صفعة أشاعت الدوار برأسها فلم تشعر إلا بنفسها تجر من ساقيها إلى مدخل العمارة القديمة بجانبها وحقيبتها القماشية معلقة بكتفيها، واحتل المشهد ظلام العمارة من الداخل..).

وتستدعي المآسي مثيلاتها فذلك المشهد الذي تتعرض له الآن من أحد الذئاب البشرية يثير في ذاكرتها مشهدا مشابها لا تنساه أبدا، الفرق بين المشهد الحالي والسابق أنها الآن فتاة عشرينية بينما كانت طفلة في السابق حينما تحرش بها أحد خفراء المكان الذي يأوي الأطفال ذوي الإعاقة، يتابع الراوي بقوله ص١٢٢:

"فتذكرت يومها.. في المدرسة، بسن السابعة عندما كان بغلٌ بشري يجرها الى غرفة الفئران، يكمم فمها ونظرات الوعيد تتقد في عينيه الجاحظتين كأنما كانتا ستنفجران، "هششششششش" لو نطقت سأذبحك أسمعت؟!.. وباشر ما استطاع من نهش في لهفة، يسترق ما يشاء عمداً وخلسةً، وتعرق جسده الأسمر السمين قلقا من اقتحام أحدهم للغرفة.. وكلما حاولت الصراخ كان يزيد من كتم أنفاسها ونظرات الوعيد تستعر.."اخرسي يا بنت الكلب.. كلكم كده..كلكم كده". دمعت عيناها الواسعتان في صمت، وهدأت أنفاسها المتلاحقة كأنما استسلمت، إلا من رعشات لا تزال تسري بجسدها الصغير بالتفاوت شاربه الأشعث الخشن أصابها بالقرف والقيء كلما مرره على وجنتيها الناعمتين، ولعابه لايزال كريه الرائحة، ربما لن تمحو مياه زمزم الطاهرة نجاسته.. كانت براءتها تزهق وهي

مغلفة بالصمت، لم تفهم ولم تستوعب سوى أن ثمة شيئاً قذراً يحدث رغماً عنها".

لقد لعبت لغة الكاتب الوصفية دورا محوريا في رسم المشهد بكل ما يحيطه من أحاسيس ومشاعر، نهش طفلة لا حول لها، ذلك المشهد تستعيده نسمة الآن وهي في موقف لايختلف عنه، لكنها هذه المرة قررت أن يكون لها دور في الذّب عن كرامتها ووجودها وإنسانيتها المبعثرة، يواصل الكاتب وصف مطاردة سراج اللا إنسانية بقوله ص١٢٣:

"انتزعها من الشرود في الماضي ألم اعتصاره لثدييها بيديه القذرتين، وظلام المكان حولهما إلا من الضوء الآتي من الخارج عبر باب العمارة الضيق.. وفجأة.. وبينما كانت تستند بظهرها على السلم، هدأت للحظات، كأنما استسلمت بالفعل مرة أخرى، وهدأت انفاسها مرة أخرى، لكن اليوم لم تسر تلك الرعشة بجسدها فقط، ازدادت عيناها ثباتاً وهدأ جوفها، فتوقف "سراج" عما كان يفعل..

_ مالك يا بت في إيه؟!.

قالها بعد أن رأى تلك النظرة التي لم يعتدها من قبل في عيني أنثى.. نظرة باردة ثاقبة، نظرة ارتجف لها لثوان، وقبل أن يزداد عناداً ويقبل عليها من جديد، انسلت يدها اليمنى بترو إلى حقيبتها القماشية ولا تزال النظرة الباردة بعينيها

الخاويتين من الخوف وأخرجت إحدى فرش التلوين خشبية المقبض.. وبلا رحمة.. طعنت أقرب جزء من جسده تبدى لها طعنته ثلاث طعنات عشوائية بجانب رقبته السمراء، واحدة أسفل الأذن وواحدة أقرب إلى الكتف وواحدة انتصفتهما.. ورفسته بعيداً بقدميها بكل ما أوتيت من قوة وغضب، كأنما تزيل النجاسة بعيداً عنها.." .

لقد استطاع الكاتب أن يكشف باقتدار فني عن دور الفن وخاصة فن الرواية في التأتي لقضايا شريحة مجتمعية كثيرا ما أهملت وهمشت وسط الاحتفاء بالجنس والسياسة في الرواية المعاصرة، ليؤكد أن للرواية أدوارا موضوعية وفنية لاتزال مهيأة لخوض غمار أعثر القضايا وأعلاها حساسية، كل ذلك وهو يكتب الواقعية فيما يشبه ماكان يكتبه الروائيون الروس من رواية اشتراكية تدعو إلى المساواة آملة في تغيير الواقع المؤلم.

رابعا: الإرادة والحب:

أمر آخر تلفت إليه الرواية وتؤكده وهو أمر يؤمن به المؤلف وقد ذلل له كل ما يعتوره من صعاب إنه قضية الحب بين أعمى وصماء وكيفية التواصل بينهما، لقد جعل من هذه الفكرة موضوعا رئيسا لروايته، راهن فيها على فكرته وهي إمكانية التواصل بينهما رغم استحالة ذلك ظاهرا.

أحب بلال نسمة وكانت رائحة الياسمين أول ما لفته إليها. وأحبّته نسمة قبل أن تعرفه جارا لها، قرأت رواياته وتابعت أعماله واختاره الله لها ساكنا، فكان قاب قوسين من ياسمينها وكانت هي قاب قوسين من بلالها، فتحاول نسمة بما عهدنا فيها سابقا من إصرارها وإرادتها أن تنفذ ما تفكر فيه مهما كلفها، قررت أن تبادر هي بالبوح عن حبها لبلالها، فخرجت غير مرة من شقتها لتطرق بنعومة باب شقته، وصعقها مرة إذ خرج إليها لم تسمعه هي بل اكتشفت أنه لا يراها، بل لا يرى شيئا إنه أعمى، يقول ص ٧٧:٧٦:

"وطرقت الباب بلطف. طرقة تلو الأخرى ولا يزال باب الجنة مغلقاً.. استعرت نار الشوق وخالطها وقود التردد واضطربت، فأخذت تدك الباب دكاً، فلا تسمع أذناها سوى الطنين المخالط للصمت، فيشتد غضبها وتزيد أكثر تسارعت دقات القلب بدقات قبضتها على الباب حتى لمحت اهتزاز الباب كأنما سيفتح، ولم تلحظ زعيق بلال يشتم ظنا منه أنه أحد المشاكسين وفتح الباب.. فضمت

اللوحة الى صدرها والرسمة تواجه عيني بلال المنطفئتين، وظلام دامس بالمكان خلفه...

- **أيوه.. فيييه إيييه؟!**
- **......**
- **هو انا مش هاخلص منكو أبدا!!!؟ ماتسيبوني في حالي بقى**
- **.....**

تقدم بلال خطوتين إلى الأمام خارجاً من كهفه، تتقدمه ذراعاه يحاول التنبيش عله يمسك بالفاعل.. بينما تنحت المصدومة جانباً وقد جحظت عيناها المثقلتان بدمع لم تحسب له حسابا للمرة الأولى تمنت لو أنها ولدت فاقدة للبصر عوضاً عن السمع حتى تهرب إلى ظلمة، مما رأت وبينما بلال مضى إلى الأمام تعثرت قدماه في الأكياس السوداء فكاد يسقط حتى تلقفته نسمة دون النطق بكلمة، فاخترقت خياشيمه رائحة البهجة متمثلة فى الياسمين النضر..).

وعندما تكشفت لها الأزمة الكبرى التي تكمن في طريقة للتواصل معه دفعتها إرادتها وإصرارها على ابتكار طريقة تتواصل بها مع حبيبها معلنا_ أي الراوي_ أن الحب يصنع المعجزات وأن إرادته نافذة لا يقف في طريقها حاجز، تمخض فكرها عن شراء جهاز آلي (قاموس ناطق) تنقر عليه ماتود قوله كتابة ليترجم عنها بصوته الآلي ماكتبته، فانطلقت إلى المكتبة كرصاصة واشترته وقد

(أقسمت أن يسمعها وتسمعه أقسمت على كسر حاجز الصمت، واختراق ظلمات عينيه بنور رغبتها في حديث طويل مفصل مع جارها...

"ستراني وتسمعني رغماً عن أنفك يا بلالي.. بلالي أنا وحدي"، ص٩٢ .

لم تضيّع نسمة الوقت ، بل قررت تنفيذ خطتها على الفور فذهبت بجهازها إلى شقة الحبيب لتطرق عليها، فإذا خرج كتبت له يقول ص ٩٨:١٠٠:

"- سلام عليكم ورحمت لله بركاته..

لوهلة ظن "بلال" أن أثار الحر أو ضربة شمس أثرت بقدرة استيعابه" لعلي أهذي من جديد لامتناعي عن تناول الدواء!!".. كان صوتاً آلياً غريباً يحاول النطق بأحرف عربية.. نعم، وقعها عربي، ولكنها غريبة بعض الشيء.. فاسترسل في الحديث قائلاً:

- **أيوة؟؟**
- **حضرتك مستر بلال؟**
- **" اللعنة عليَ.. أذكر جيداً أني لم أعد أتجرع تلك القذارات منذ الحادثة".**
احتار نظمه واختل للحظات.. صوت آلي يتحدث إليه بلغة أعجمية أو ربما سريانية هي..
- **مبين؟؟؟ مبين؟؟**
- السلام عليكم..و..رحمة.. الله.. و.. بركاته..

كان الصوت آليا لكن هذه المرة جاءت الكلمات أكثر انتظاما ولا يزال عقل "بلال" يرسم ألف صورة لما يحدث خلف ستار الظلام الدامس.

- **أنا.. نسمة.. يا أستاذ.. بلال.. نسمة.. جارتك.**
- **إيه؟!!**
- **نسمة.. بنت.. طنط.. سمية..**
- **نسمة إيه؟؟ فين؟؟!**

كانت الفتاة خضراء العينين تقف قبالة المسكين المذهول يحاول استيعاب مايجرى.. "أية نسمة تلك؟؟!". وكانت تلك المرة الأولى التي تلجأ فيها "نسمة" إلى ذلك الحل الغريب للتواصل..

"القاموس الناطق"، لعلها فكرة ساذجة، قد تثير السخرية إذا ما استخدمت أمام أناس عاديين، لكنها عزمت على تلك المحاولة حتى لو سخر منها هو .. وكان من نصيبها قاموس ناطق بخس الثمن بصوت رجل، كان صوته مزمجرا كما لو كان آليا حقيقياً أتى من الفضاء..، ولعلها لا تدرك بالفعل مدى سوء صوته!!، بدا له الأمر أشبه بمزاح سخيف".

هكذا كان ذروة الحدث الروائي وأزمته التي تنحل بفكرة نسمة المبتكرة، ليكشف الروائي من جديد عن اهتمام إلى درجة المعايشة الفعلية بتخييله السردي

محققا نجاحا في إدارة حبكته الروائية، بحلول منطقية وواقعية تجاه حدث واقعي قابل للوقوع على مستوى الحقيقة الإنسانية.

ويقابل المحبوب بلال إرادة نسمة للتواصل معه بإرادة أخرى لا تقل عنها غرابة وعزما، إذ يقرر بدوره أن يتعلم لغة الإشارة لمسا على اليد بعدما آمن بها شريكا وأحبها من قلبه، يذهب من فوره وبصحبة طبيبه النفسي إلى إحدى جمعيات الصم والبكم مصرّا بلا تردد أن يتعلم لغتهم للتواصل مع حبيبته يقول ص١٦٧:

" وبدا الأمر كرحلة عجيبة سيقوم بها "بلال".. لاسيما أنه سيخوضها ضريراً.

- **إذا كثفا الكورس، يتعلمها الطالب في غضون شهرين، إذا أراد أن يتقنها.**
- **جميل، وأنا مستعد..**
- **لكنك يا ولدي تحتاج لطريقة خاصة، وبعدها، يمكن للفتاة أن تعلمك الباقي.**
- **أنا أريد الخوض في تلك اللغة بأسرع ما يمكن، ربما فقدت بصري، لكني لم افقد عقلي.**
- **اتفق كلاهما على تعين شخص من المؤسسة لزيارته ثلاثة أيام بالأسبوع في المنزل، وتعليمه مايلزمه بطريقة تناسب علته".**

وهكذا استطاع الحبيبان أن يجدا لنفسيهما طرقا للتواصل بينهما، عاملين على تطوير هذه الطرق والأساليب بما يناسبهما وحدهما، وبدآ في ممارسة حياتهما كحبيبين يخرجان دوما، فيرى بعينيها وتسمع هي بأذنه، حتى تزوجا.

ومُضيًّا في واقعية الحدث الروائي يتابع المؤلف بمعايشته المتخيلة بعض المشكلات التي ستنتج حتما بينهما، لعل أهمها حنين بلال إلى صوت امرأة حقيقية، أنثى تحدّثه وتسامره إذ ملّ صوت الآلة الذي كان يعطيه انطباعات شائهة ومفارقة لمحبوبته ذلك الغزال الرقيق.

هكذا بدت لنا الرواية جديدة في موضوعها إذ كان بطلاها من المعوقين، أحدهما أعمى والثانية بكماء صماء وفي هذا يبدو الجديد في الأدب المعاصر الذي بدأ في الاستجابة للحاجات المجتمعية الملحة والأشخاص ذوي الإعاقة وقضاياهم، فهو لون من الواقعية الجديدة في موضوعها والإيجابية في تناولها، مثيرا قضايا عدة كقضية دمج المعوقين في التعليم النظامي بمصر، وقضية التواصل بين عالمين من الإعاقة متباعدين التي كانت الأزمة والحل معا الذي طرحته نسمة للتواصل معهم، كذلك من القضايا اللافتة والتي تمس واقعية الرواية الكشف عن التحرش بالفتاة المعروفة حيث تظهر حيوانية المجتمع ولا آدميته تلقاء مايعرف بثقافة المجتمع عن المعوقين، ثم كانت أخيرا تجربة الحب بين الكفيف والصماء من خلال هذه الرواية معقدة ومركبة أظهر فيها المؤلف أهمية الحواس في تضليل صاحبها فبلال وإن اشتم منها الياسمين ولامس أصابعها بيده فتظل الآلة اللعينة هي الرسول غير الأمين في نقل المشاعر بينهما، وكانت حائلا زجاجيا بينهما الأمر الذي جعله مرة يبحث عن صوت أنثى حقيقي يفتقده.

إشكالات فنية :

ورغم تقريظنا لموضوع الرواية ولغتها التي جاءت مزيجا من الشاعرية حينما كان يصدر بعض فصوله بلوحات وصفية للزمان والمكان، والواقعية في حواراتها حينا آخر فثمة ملاحظات على بعض عناصرها الفنية وتقنياتها السردية، تأتي الشخصية الروائية في مقدمة هذه الملاحظات فلما كان تركيز المؤلف على الإعاقة السمعية أكثر من تركيزه على الإعاقة البصرية الأمر الذي انسحب على رسمه للشخصيتين الرئيسيتين، وفي ظني أن المؤلف قد أحسن اختيار شخصية نسمة ووصفها فجاءت شخصية لافتة تمثل عصفور الجمال وقد أبدع في إقناعنا بوجودها بيننا، أما شخصية بلال فلم يكن إقناع المؤلف لنا بها مثلما فعل مع نسمة، فلم ينسجم ما أظهر بلال عليه من عمق في الثقافة واحتراف الأدب والفلسفة مع ردود أفعاله وسلوكه مع من حوله التي كشفت إلى حد ما عن سطحية الشخصية وليس عمقها، الذي حاول المؤلف تأكيده وهو مرة أديب ذائع الصيت وأخرى مريض نفسي ، وثالثة لم يبررها الكاتب وأعني بها انتقاله من حياة الثراء واختياره السكنى وحده في أحد الاحياء الشعبية ، أضف إلى ذلك علاقاته بأخته وأصدقائه ومن حوله، التي جاءت غير واضحة أو مبررة، وأن يكون البطل بلال موسيقارا لا أديبا ربما كان ذلك _في ظني_أكثر انسجاما مع علاقاته ومزاجه العام والخاص، وهناك شخصيات في الرواية لم تستثمر ولم يكن لدورها

ملامح في أحداث الرواية وكان ظهور بعضهم عبئا لا دور وظيفيا لهم كشخصية خطيبة بلال الأولى وأخته وبعض أصدقائه وزملائه في العمل.

ومع ذلك كله تبقى كافة شخوص الرواية شخوصا مأزومة ومعوقة في آن، فإضافةً إلى شخصيتَي **بسمة** و**بلال** تأتي شخصية **(والدة بسمة)**، مأزومة بزواجها معوقة عن الخلاص، وشخصية سراج معوقة بأمراضها، وشخصية أبيه فوزي معوقة بأمراضه العضوية، ليختزل لنا الكاتب المجتمع كله بأنه مجتمع رغم عينيه وأذنيه، لا يبصر الحقيقة ولا يسمع لها.